

تفسير ابن كثير

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفني بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون : إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوا بل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها فإذا كان وقت ولادتها لايقبلها إلا نساء القبط فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن وإن ولدت غلاما دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم اﷻ تعالى .

فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفتن لها الدايات ولكن لما وضعته ذكرنا ضاقت به ذرعا وخافت عليه خوفا شديدا وأحبته حبا زائدا وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال اﷻ تعالى : { وألقيت عليك محبة مني } فلما ضاقت به ذرعا ألهمت في سرها وألقي في خلدائها ونفث في روعها كما قال تعالى : { وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين } وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعت في ذلك التابوت وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها فلما كانت ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعت في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها فلما كشف عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع اﷻ محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراد اﷻ من كرامتها وشقاوة بعلمها ولهذا قال : { فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا } الآية قال محمد بن إسحاق وغيره : اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل لأن معناه أن اﷻ تعالى قيضهم لالتقاطه ليحمله عدوا لهم وحزنا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ولهذا قال تعالى : { إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين } وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز هـ أنه كتب كتابا إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب اﷻ وبأقداره النافذة في علمه السابق وموسى في علم

اﻻ السابق لفرعون عدو وحزن قال اﻻ تعالى : { ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون } وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى وليا وناصر اﻻ تعالى يقول : { ليكون لهم عدوا وحزنا } الاية .

وقوله تعالى : { وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك } الاية يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذبذونه وتحببه إلى فرعون فقالت : { قرة عين لي ولك } فقال فرعون : أما لك فنعم وأما لي فلا فكان كذلك وهداها اﻻ بسببه وأهلكه اﻻ على يديه وقد تقدم في حديث الفتون في سورة طه هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعا عند النسائي وغيره وقوله : { عسى أن ينفعنا } وقد حصل لها ذلك وهداها اﻻ به وأسكنها الجنة بسببه وقوله : { أو نتخذه ولدا } أي أرادت أن تتخذه ولدا وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى : { وهم لا يشعرون } أي لا يدرون ما أراد اﻻ منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة